لومبار
مؤرخ المجتمعات الاسلامية

د. فرنسوا زبّال

يحتل « موريس لومبار » مكانا خاصا بين مؤرخي المجتمعات الاسلامية . فهو يتبع منهج المدرسة التاريخية الفرنسية ـ مدرسة الـ Annales ـ ولا يعمل بأساليب الاستشراق ، ولا هو متأثر بمنطلقاته الايديولوجية والفكرية . واهمية ابحاثه البالغة كامنة في تطبيقه الاساليب التاريخية الجديدة على مجال بقي ـ الى حد كبير ـ خارج التحولات التي شهدها علم التاريخ ، وعلم الاجتماع في المرحلة الاخيرة . وقو تعود قدرته على القيام بابحاث غير خاضعة لنظرة فلسفية، او لموقف ثقافي؛ الى كونه مؤرخ المجتمعات الوسيطية ؛ قبل ان يكون مؤرخ الاسلام، حيث ينظر الى الظواهر الاقتصادية والتاريخية في المجتمع الاسلامي في علاقتها بمثيلاتها في المجتمعات المجاورة : بيزنطية ، الغرب ، اوروبا الوسطى ، الخ ..

سوف نركز على بعض دراساته ، ونكتفي بتلخيص نتائجها الاساسية لتقديم صورة عن التوجه الاساسي الذي يقودها ، لعل القارىء يطلع بدقة على كتب احد اهم مؤرخي الاسلام (١)، ونقدم لذلك بكلمة عن مؤلفاته وحقل دراساته :

مؤلفات لومبار ودراساته

لم ينشر لومبار سوى مقالات متفرقة في مجلات مختصة ، وكتبه الاربعة طبعت بعد وفاته بفضل اهتمام اصدقائه وتلاميذه ، ومن بينهم فرنان بروديل وجاك لوغوف :

١ ـ « الاسلام في مجده الاول (من القرن الثامن الى القرن الحادي عشر) » (٢) : وهو الكتاب العام الوحيد . الذي يجمع وصفا جغرافيا شاملا ، مع تقديم لنتائج دراسات اخرى حول

---

(١) لن نتحدث عن المنهج لتشابهه بمنهج بروديل الذي وصفناه في مكان اخر من هذا العدد

(٢) L'Eslam dans sa prèmière grandeur الكتاب الوحيد الذي ترجم الى العربية ـ دار الطليعة ١٩٧٧

المشاكل المالية ، وتطور المدن ، ومسائل اقتصادية عديدة عن تحديد مصدر المنتوجات والمعادن الخ ...

٢ ـ Espaces et reseaux du haut moyen âge (٣) . . وهو مجموع المقالات التي نشرها لومبار في مجلات وجمعت بعد وفاته ؛ وسنعود الى بعض المقالات .

٣ ـ « **النقد والتاريخ من الاسكندر حتى محمد** » (٤) . الجزء الاول من الكتاب (٧٠ صفحة) مؤلف من لائحة المراجع الخاصة بتاريخ الاسلام الاقتصادي . اما الجزء الثاني فيبحث في تاريخ النقد في عدد كبير من المجتمعات ، وعبر مرحلة زمنية طويلة تمتد من القرن الرابع قبل المسيح حتى القرن الحادي عشر الميلادي : تحديد مركز مناجم الذهب والفضة والنحاس ، طرق المواصلات ، الانظمة النقدية المختلفة ، كيف كان للاسلام اثر في توحيد العملات ، واقامة نظام نقدي موحد في كل بلدان الحوض المتوسط الخ ...

٤ ـ « **المعادن في العالم القديم من القرن الخامس حتى القرن الحادي عشر** » (٥)

اهمية المسائل التي بحثها

لا تنحصر اهمية المواضيع التي يبحثها لومبار في المجال الاقتصادي فقط ، بل هي قد تساعد على الاجابة ـ بشكل حاسم ـ على عدد كبير من المشاكل المسماة بالحضارية ، ولا اعني هنا انه يكفي ان نفسر ظاهرة معينة من «انحطاط» او «ازدهار» ، ونمو وتطور علمي ، انطلاقا من سببيات اقتصادية . فقد تكون العلاقة احيانا مباشرة بين وضع اقتصادي وآخر سياسي : يمكن مثلا ارجاع عدد كبير من الحروب بين الدولة الاسلامية وبيزنطية الى حاجة المجتمع الاسلامي لخشب قيليقية ، او تفسير توقف الفتوحات الاسلامية عند حدود شمالية معينة لاعتماد الغرب على الجمل الجنوبي الذي لا يتحمل الطقس البارد (٦) . الخ . .

لكن الحضارة ترتبط بعوامل اكثر من ان تحصر في اسباب محدودة . من هنا لجوء المؤرخين الى حجج ذات طابع ايديولوجي تقفز فوق الواقع المادي ؛ لعدم قدرتهم على قياس الاسباب العديدة . ولومبار لا يحاول تحديد علة او سبب لانحطاط بغداد مثلا ، بل يلجأ الى الكشف عن خطوط من السببيات تتقاطع عند نقطة معينة .

١ ـ الذهب وازدهار الغرب

كان هنري بيرين Pirenne في كتابه الشهير « محمد وشارلمان *«Mahomet et Charlemagne»* (١٩٣٧) ؛ قد اكد انه رافق ظهور الدولة الاسلامية اختفاء اربعة ظواهر في

---

(٣) Mouton · 1972

(٤) Mouton · 1971

(٥) Mouton 1974

(٦) هذا ما يطوره Xavier de Planhol في جغرافيا العالم الاسلامي الانسانية .

الغرب ابتداء من القرن الثامن (٧) هي :

١ ـ توقف سك الذهب ، ٢ ـ انقطاع استيراد الاقمشة الشرقية ، ٣ ـ التخلي عن استعمال البردي ، ٤ ـ عدم وصول البهارات .

يربط بيرين الاختفاء الرباعي هذا بانقطاع التبادل التجاري بين الشرق والغرب . اما موريس لومبار فيظهر ـ على اساس تدقيق في النصوص الغربية والشرقية معا ـ ان عوامل عديدة قد لعبت دورا اساسيا في خال كانت العلاقات التجارية تتطور عكس ما أكده بيرين . كانت ثلاث من الظواهر الاربع احتكارا دوليا ، فمنذ الامبراطورية الرومانية كان الذهب والاقمشة الثمينة ، والبردي تصنع وتسوق باشراف الدولة المباشر .

فالنقد الذهبي : توقف سبكه في الغرب في النصف الثاني من القرن الثامن اي بعد الفتح الاسلامي بكثير ، ولهذه الظاهرة اسباب عديدة منها : علاقات شارلمان بامبراطور بيزنطية . لكن لومبار يضع في المرتبة الاولى التحولات التي طرات على التجارة في الحوض المتوسط ، منها :

١ ـ ازدياد التبادل التجاري بين الغرب والبلاد الاسلامية ، وسيطرة البضائع الاسلامية على الحوض المتوسط ، وبالنتيجة سيطرة الدينار وبروزه كعملة اساسية في التبادل ، ومن هنا توقف السبك ، لان التجار الجدد لم يعودوا يقبلون الا النقد الذهبي في شكله الجديد .

٢ ـ الاقمشة الثمينة : كانت حكرا للدولة في بيزنطية . لكن توقف وصولها الى الغرب سببه التوجه الى البلاد الاسلامية التي تمتلك الذهب والتي تشكل سوقا كبيرا للبضائع البيزنطية الثمينة .

٣ ـ اما بالنسبة للبردي ؛ فالتوقف في تصديره من مصر بدأ بعد الخلاف الذي حصل بين عبد الملك والامبراطور البيزنطي (٦٩٢) . فقام الغرب باستخدام الرق المحلي ، ولم يعد الى استيراد البردي بعد توقف حظره من قبل الدولة الاسلامية لارتفاع ثمنه . اما بيزنطية فعادت الى استعماله حتى حلول الورق مكانه في نهاية القرن العاشر .

٤ ـ وضع البهارات مشابه لوضع البضائع الثمينة بشكل عام . فقلة العملة الغربية هي العامل الاساسي في هبوط القدرة الشرائية بالنسبة لتلك البضائع . ولا يصح القول : ان العالم الاسلامي قد اوقف التبادل التجاري بين الغرب والشرق ، بل بالعكس فهو فتح شرق الحوض المتوسط على غربه من جهة ، والمتوسط على افريقيا وآسيا من جهة اخرى .

٢ ـ تطور المدن :

كان موضوع المدن محور بحث بيرين كذلك ، اذ اكد ان التراجع المديني الذي عرفه الغرب ؛ كان سببه الازدهار الاسلامي وتوقف التبادل التجاري .

---

٧) انظر الفصل الثاني من : « Espaces »

ينطلق تحليل لومبار من العلاقة بين التداول النقدي (وتداول الذهب بشكل خاص) وازدهار المدن في العهد القديم والقرون الوسطى . فكلما ازداد التداول وارتفع حجم النقد المتحرك واتصل السوق بمصادر جديدة من مناجم الى خطوط تجارية جديدة ـ ازدهرت المدن وتطورت . والربط بين هاتين الظاهرتين يعود الى كون المدن لا تشكل وحدات مستقلة . فالمدن دائما شبكات مدن حسب تعبير لومبار . ولا يمكن ابدا ارجاع حجم المدن الاسلامية الى علاقتها بالريف : (ان نربط مثلا وضع الاسكندرية بمصر) . حجم المدن الاسلامية يعود الى كونها محطات « التجارة البعيدة » وعلى اي تحليل ان يأخذ في عين الاعتبار التقاء عاملين في تكون المدن : علاقة الريف بالمدينة وعلاقة المدن ببعضها بعضا ، فيكون من المبالغ جدا الاقتصار على دراسة ما يسمى بنمط الانتاج الاسيوي في وضع العالم الاسلامي ، وذلك حتى بالنسبة للعراق ومصر اللذين يشكلان النموذجين الاقربين الى شكل الدولة « الاسيوية » : على التحليل ان يقيس ما يعود في حجم المدن الى التجارة البعيدة، وما يرتبط بفائض الانتاج المستخرج من الريف. بغداد القرن التاسع مثلا هي عاصمة العالم ، اي عاصمة الشبكات التجارية التي تشع في اتجاه : الصين ، اسيا الوسطى ، المحيط الهندي ، افريقيا السوداء ، روسيا ، اوروبا الغربية ، الخ ... والا كيف يفهم حجم اكبر مدينة في العالم القديم : اكثر من مليون نسمة (!) في حال لم تصل القسطنطينية الى المليون . اما في الغرب فلم تأخذ باريس حجم المدن الاسلامية سوى في القرن الرابع عشر (ثلاثمائة الف نسمة) .

مدن الغرب تزدهر

اما مدن الغرب بعد الفتح الاسلامي فلم تتراجع كما يقول بيرين ، ولومبار يظهر العكس ، ويؤكد ـ على اساس الخرائط التجارية (٨) والتواريخ ـ ان الغرب بدأ يزدهر عندما فتح العالم الاسلامي الخطوط التجارية بين الغرب والشرق. كما ان القسطنطينية عرفت ازدهارها الثاني في القرن التاسع بسبب عودة الحركة الصناعية اليها مع تدفق الذهب من جديد من الغرب ، ومرور خطوط تجارية من الغرب الى العالم الاسلامي . ذلك ان التجارة عالمية في ذلك الوقت ، والازدهار اذا كان خاضعا للشبكات التجارية التي تنقل السلع والنقد والاشخاص ؛ فهو يطال المناطق الاستراتيجية المحورية .

يقدم لومبار اذا مادة واسعة لتحليل عدد كبير من المسائل المركزية التي تقف عندها الدراسات الاسلامية . ويبدو لنا ان لا حل للنقاش « الحضاري » الفارغ اذا لم ينطلق من الواقع التاريخي والاقتصادي الذي يصوره لومبار في كل الاتجاهات في كتبه الاربعة ، وعندما يؤكد لومبار (٩) ان العالم الاسلامي وصل الى قمة ماكان يمكن الوصول اليه في العالم القديم وذلك

---

(٨) كل كتب لومبار تحتوي على خرائط مهمة جدا لفهم التاريخ الاقتصادي والاجتماعي الاسلامي .

(٩) في اخر فصل من كتابه « الاسلام في مجده الاول ».

في المجالات كلها : الازدهار التجاري ، الصناعي ،الثقافي ، الخ . . . فلا تأخذ هذه الاطروحة طابعا ايديولوجيا ولا «حضاريا» ، لانها تضع المجتمع الاسلامي في اطار المجتمعات القديمة الاخرى ولا تفصل بينها ، فهو تتويج لوضع سابق سمحت به الحركة والخطوط التجارية الجديدة ، ولم ير العالم القديم ازدهارا جديدا ، الا عند دخوله من جديد في نطاق التجارة العالمية في القرن السادس عشر ، وكان ذلك تكريسا لموت الحوض المتوسط الشرقي والغربي معا .